اللغات السامية
مجال في علم اللغات

محمد سليم رشداف

الاستاذ المحاضر في الجامعة الاردنية

ان أول ما نلتفت اليه حتى نتحدث عن اللغات السامية في مجال علم اللغات ، هو ذلك المصدر البعيد، الذي نبعت منه هذه اللغات السامية جميعا، وتشعبت عنه في الشمال والجنوب في الاقطار المختلفة التي استقر فيها ابناء هؤلاء الساميين منذ اقدم العصور .

وقد اختلف العلماء في تعريف هذا المصدر البعيد وفي نعته وتسميته ، فمنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية هو اللغة (السامية الاولى) التي نطق بها في اعماق الدهر اقوام زالت بزوالهم وفنيت بفنائهم ، وبقيت منها ظلال ورسوم ، يلمحها الرائي على السنة احفاد اولئك الاقوام ، الذين تنوعت السنتهم باختلاف مواطنهم (1) في الشمال والجنوب .. »

ومنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية ، انما هو اللغة (العربية الاولى) ، التي نطقت بها سبا في غابر الدهور ، حين عمرت اليمن وجعلت منها موطنا لها ، وجعلت تبتعد هذه الساميات عن امها السبئية بتراخي العصور ، وتنائي الديار ، واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الاقوام (2) ممن جاورهم في اصقاع الارض .. ».

ثم ان هؤلاء العلماء قسموا هذه اللغات السامية الى اسر ، عرفت فيها اللغة الكنعانية وما تفرع منها بالاسرة الغربية ، وعرفت فيها اللغة البابلية وما تفرع منها بالاسرة الشرقية . ثم عرفت فيها اخيرا اللغة العربية وجارتها الحبشية وما تفرع منها بالاسرة الجنوبية .

وان موضوعنا الذي نخوض فيه يقتضي ان نطيل الوقوف عند الكنعانية التي اعتبرت الاصل الذي تشعبت عنه لغات الاسرة الغربية . وكانت اللغات العبرية واحدة من هذه اللغات .

وعلى الرغم من ان هذه اللغات العبرية قد تسرب اليها الكثير من الدخيل ، بسبب هجرة

---

(1) ذكر هذا الراي المستشرق (اولس هاوزن Ols Housen) في صدر كتابه ، الذي تحدث فيه عن « اللغة العبرية وتاريخ نشاتها » . والكتاب موضوع في اللغة الالمانية ومترجم الى الانجليزية .

(2) ذكر هذا الراي المستشرق اليهودي : (ليون ماحرز Lion Mahraz) وكذلك الدكتور علي العناني ، وذلك في كتابهما الذي صدر بعنوان: « الاساس في الامم السامية ولغاتها » وقد وضعاه في اللغة العربية .

ابنائها العبرانيين الى مصر ، واقامتهم الاجيال الطويلة فيها ، ثم تشردهم بعد ذلك فى بلاد (ملكان) قرابة نصف قرن من السنين ، وهي ايام التيه فى سيناء .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه اللغة ظلت قريبة الشبه من امها الكنعانية ، وغير بعيدة عنها . حتى كان اليهود انفسهم يصفون لغتهم العبرية ، بانها (لسان كنعان) . وقد ورد ذلك صراحة ــ وفى مواطن كثيرة ــ فى اسفار كتابهم المقدس .

* * *

وان اللغة العبرية لم تشارك الكنعانية فى اصولها فحسب ، بل شاركتها فى حروفها ، ومن اجل ذلك كتبت العبرية ــ اول ما كتبت ــ بالحروف الابجدية الكنعانية ، وظلت تكتب بها طوال العهد الذى مر بالعبرانيين منذ استوطنوا ارض كنعان ، الى ان كان السبي وخراب بيت المقدس . وكان شاهد ذلك ، النقش الذى خلفوه فى نفق (عين سلوان) عند الزاوية الشرقية من سور مدينة القدس الحالي (3) ، كما كان شاهد ذلك النقود التى عثر عليها فى اطلال بيت المقدس من ايام عهد (الهيكل) ومن ايام عهد (المكابيين) الذين شردهم الرومان بعد ثورتهم عليهم.

وقد بقي من آثار اللغة العبرية ــ التى هي بنت الكنعانية ــ الكتاب المقدس فى عهده القديم ، الذى يدل عليها اكمل دلالة ، ويسهل دراستها للباحثين ، ويقدم لهم صورة تكشف الكثير من ملامح امها الكنعانية ، التى كان من بنائها الى جانب العبرية : الفينيقية والنبطية والعمورية والموءابية ، وسواها من ساميات الاسرة الغربية .

وحين نبتغي مقارنة لغات الاسرة الغربية ، بلغات غيرها من بنات الاسرتين الباقيتين ، لا نجد امامنا ما يصلح لمثل هذه المقارنة غير لغتين النتين فقط ، هما : اللغة العربية من بنات الاسرة الجنوبية ، ثم اللغة الآرامية (ام السريانية) من بنات الاسرة الشرقية . وذلك لان ما عداهما ، اما انها ضاعت معالمها الاصيلة ، لكثرة ما اقتحم عليها من دخيل الشعوب المجاورة ، كاللغة الحبشية فى الاسرة الجنوبية واما انها زالت بزوال اهلها ، كالآشورية، والكلدانية. وسواهما من بنات الاسرة الشرقية المتفرعة عن البابلية .

ولما كانت اللغة العربية هي موضع الاهتمام كله بالنسبة لنا ــ نحن ابناءها الناطقين بها ــ وفى ظلها تدرس اللغات السامية من اجل ان نستكمل الاحاطة بها ، ونتوغل الى جذورها البعيدة خلف اعماق الدهر ، حين كانت المبتدأ الذى منه تشعبت هذه اللغات السامية جميعا ، كما تكاد تجمع آراء الباحثين ، لذا فان مثل هذه المقارنة بينها وبين ما نتوصل الى معرفته من بنات هذه الاسر جميعا ، هو نهاية المدى وخاتمة المطاف والغاية التى نستهدفها من هذه الدراسة .

اذن بقي علينا ان نلتمس مثل هذه المقارنة بينها وبين اللغة الآرامية (ام السريانية) ، وعندها لابد لنا من الوقوف عند مدينة (الرها) لنلم بتاريخها ، ونعرف اخبار علمائها الذين احفوا لغتهم بالكثير الكثير من روائع المؤلفات فى مواضيع مختلفة . ثم نلتفت بعد ذلك الى الاثر الخالد وهو الانجيل فى اللغة الآرامية لغة السيد المسيح ، الذى كان وجده السبب فى بقاء هذه اللغة تتردد فى ساحات الكنائس على السنة المصلين. ورغم ذهابها من حياة الناس ، حيث استبدل بها اهلها فى كثير من ارجاء الارض لغة الشعوب التى فرضت عليهم سلطانها .

ولن ينقص من الاهتمام بهذه اللغة ، كونها لغة انحسر ظلها ، واصبحت فى عديد اللغات التاريخية ،

---

(3) اسمها فى لغة الكنعانيين القدماء (شلوح) وكانت تطلق على الينابيع وعنهم نقلها العبرانيون، وفى اللغة المؤابية تقابلها كلمة : (اشوح) ، وقد وردت فى (حجر ذيبان) ، واشير بها الى مورد الماء . وهذا الحجر عثر عليه فى الاردن على مقربة من بلدة مادبا.

(4) الرها: اسمها الآرامي (ارهولي) ، واسمها اليوناني اديسا ــ Edessa) ، وقد كانت حاضرة العلم . وفيها قامت لها مدارس تنقل الحضارتين الافريقية والهندية الى ابناء المشرق ، ويؤلف علماؤها فى ذلك الكتب الكثيرة . وهي التى اعتمدها المترجمون فى عهد الخليفة المامون العباسي.

التي تدرس من أجل ان تبرز غيرها ، بسبب صلتها بها وقربها منها ، واشتراكها معها في الاصول والاعراق، وذلك حالها مع اللغة العربية وموضعها منها ؛ ومكانها في ابراز أصولها البعيدة ، ومن اجل هذا :

فان دارس اللغة العبرية في اصولها القديمة والحديثة ، باعتبارها لغة تاريخية ذات علاقة وثيقة – من ناحية الاصول والمصادر – باللغات السامية في أسرها الثلاث ، وبالتالي باللغة العربية ، يحسن به ان يحيط الى جانبها باللغة الآرامية ، ولو وقف ذلك عند حد قراءة النصوص ، وتصريف الافعال والاسماء مع الضمائر ، والالمام بتاريخ هذه اللغة ، ومدارس علمائها يوم كانت في عهود ازدهارها ونهضتها ، وبذلك يكون قادرا على المقارنة بينها وبين العبرية من ناحية ، ثم المقارنة بينهما معا وبين اللغة العربية من ناحية اخرى .

* * *

وحين نبلغ هذا المدى ، يجدر بنا ان نعلم بأن مقارنة لغة بسواها من اللغات القريبة منها او المشاركة لها في اصولها – كما هو الحال بين اللغات السامية على اختلافها – انما هو علم له قواعده واصوله ، يسمونه (علم اللغات) ، وهي تسمية كان لها مدلولها منذ عهد اليونان الاقدمين ، حين كانوا يحملون مشعل المعرفة لمن عاصرهم من اهل زمانهم ، وكانوا يلفظونها يومذاك (فيلولوجيا) وهي مركبة (5) من كلمتين : (فيولوس) ومعناها صديق ، و (لوجوس) ومعناها كلمة ، وعلى ذلك يكون معنى الكلمتين حين اجتمعتا معا هو : (صديق الكلمة) وقد رمزوا بها الى العالم الباحث .

واول من نطق بالكلمة المركبة هو الحكيم (افلاطون) ، واراد بذلك توجيه الرغبة الى البحث العلمي . ثم صار هذا اللفظ يطلق على كل تفرغ الى استيعاب المعرفة ، ايا كان نوعها ما دامت هذه المعرفة تتناول شأنا من شؤون اللغة ، والبحث في تاريخها واصولها ، وقد استعمل هذا اللفظ قبل الميلاد في مدرسة الاسكندرية للدلالة على معرفة علوم اليونان والرومان في لغتيهما الاغريقية واللاتينية .

ثم تجوز الناس فيه فاذا هم يطلقونه على كل علم من العلوم مهما كان نوعه ، ومهما اختلف موضوعه، ومهما تشعبت فيه المسالك واختلفت الاسباب . واستمر به الحال على هذه المنوال ، حتى كان بدء عهد النهضة العلمية في ايطاليا ، وعند ذلك عاد لهذا اللفظ معناه ، الذي حدد له ايام مدرسة الاسكندرية . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، اتسعت دائرة هذا الفن اللغوي ، فشمل البحث فيه كل لغات بني الانسان ، وليس فقط اللغتين : اليونانية والرومانية ثم ما في هذه اللغات الانسانية من انتاج عقلي ، حتى اصبحت كلمة (فيلولوجيا) تدل على المعنى الآتي وهو : « علم اللغات ، الباحث عن جميع الدراسات ، لدى كل امة من الامم ، لمعرفة اللغات واصولها ؛ وكل ما انتجته معرفة الانسان ».

لذلك كان على (علم اللغات) ان يقدر درجات الرقي الانساني العام ، في اللغة والادب وفي النظم الاجتماعية وفي الحياة الفردية ، وفي الدين والصناعة والعلوم . ومن اجل ذلك صح ان يقال : (الفيلولوجيا المصرية) او (اليونانية) او (العربية) او (السريانية) او (العبرية) او (الهندية) و ما سواها . والمراد من ذلك هو كل ما لهذه الامم واحدة واحدة من انتاج عقلي ، ونصيب مدني مدون في لغاتها .

على أن العلماء الذين تفرغوا لدراسة (علم اللغات) ، اصطلحوا ازاء هذا المعنى العام على وصف (الفيلولوجيا الرتيبة) او (الفيلولوجيا المحتذاة) . وذلك عند الاشارة الى ما كان للاغريق والرومان (6).

وغرض علماء اللغات عندها من ذلك ، هو الاشارة الى ما كان يقصد بمدلول (الفيلولوجيا) في مدرسة الاسكندرية ، من انها العلوم اليونانية والرومانية

---

(5) فيلولوجيا : هذا التركيب المزجي يكتب باللاتينية (Philologia) كما ان كلمة (فيلوس) : تكتب باللاتينية (Philos) وكلمة (لوجوس) : تكتب باللاتينية (Logos) ، وذلك لمن اراد البحث عن مدلولها مفصلا في المراجع غير العربية .

(6) الرتيبة : ومثلها كذلك (المحتذاة) ، ترجمة حرفية للاصل اللاتيني وهو (Classique) الذي كثيرا ما يستعيرونه الى العربية بلفظه حين يقولون : (كلاسيكي) .

القديمة ، وعلوم (التحرر الانساني) التى ابتدات منذ القرن الثاني قبل المسيح ، فى مدرسة الاسكندرية المذكورة (7) ، والتى ظهرت بقوة فعالة من جديد فى عهد احياء العلوم .

* * *

ويمكن حصر (الفيلولوجيا) المحتذاة بعد عصر احياء العلوم فى (ايطاليا) فى اربعة ادوار وان تداخل بعضها فى البعض الآخر .

الدور الاول : وهو (الدور الايطالي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن الرابع عشر الى منتصف القرن السادس عشر .

الدور الثاني : وهو (الدور الفرنسي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن السادس عشر الى أواخر القرن السابع عشر .

الدور الثالث : وهو (الدور الهولندي البريطاني) الذى بدا تاريخه من أواخر القرن السابع عشر ، واستمر الى نهاية القرن الثامن عشر .

الدور الرابع : وهو الاخير ويسمونه (الدور الالماني) ، اذ بدات به المانيا من أواخر القرن الثامن عشر ، ولا يزال فى نموه المطرد حتى الآن .

ولو ذهبنا نحصي ما انتجه كبار الباحثين والمفكرين من العلماء فى هذا المجال ابتداء من (الدور الاول) ، حتى (الدور الاخير) ، لضاق بنا الحصر لكثرته البالغة .

* * *

والى جانب (الفيلولوجيا الرئيسة) ، ابتدات (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات)، وذلك فى أواخر القرن الثامن عشر ، فافردت للبحث اللغوي ، فى كل اللغات الانسانية قديمة وحديثة ، حية وميتة ، وذلك لمعرفة ما فى هذه اللغات جميعها من انتاج عقلي ، فى مجالات الدين، والعلم، والفلسفة، والادب ، وتاريخ الادب، والمقارنات اللغظية، والمعنوية ولذلك سميت (الفيلولوجيا العامة).

وقد وصلت ابحاث هذا العلم اللغوي الشامل الى نتائج كبرى ، غيرت وجه التاريخ الانساني ، واقامت النهضة العلمية الحديثة ، على اسس ثابتة ، ودعائم قوية ، وكونت علوما مستقلة ما كانت لتظهر فى عالم الوجود ، لولا علم اللغات .

* * *

واما ما حصلت عليه البشرية من فوائد (علم اللغات) ومنافعه الكبرى ، فقد كان كثيرا لا يحصى، وحسبنا ان نذكر من ذلك انا بفضل هذا العلم ، توصلنا الى معرفة العاديات وحل النقوش والخطوط القديمة ، ومعرفة لغات هذه الخطوط وتلك النقوش، ومنها الهيروغلوفية والكتابة السنسكريتية ، والخط المسماري فى اللغات : السومرية والبابلية والآشورية.

وبينما كان التاريخ العام يستند الى قاعدته الاسطورية القديمة ويعتمد على روايات الكتب المقدسة، ويرى فى رحلات الرحالين ، واقوال الرواة ، والاخبار التى تقوم على الحدس والتخمين ، بينما كان التاريخ العام كذلك ، اذ بهذا العلم يزحزحه بقوته الجبارة ، عن مكانته تلك ، ليرتكز على الادلة الملموسة والشواهد المرئية ، من الآثار القديمة ، والعاديات السالفة والوثائق التاريخية المدونة ، والمخطوطات القديمة ، فيغير بذلك وجه التاريخ العام تغييرا كليا، ويقسمه الى قسمين :

الاول : ويتناول ما دونت حوادثه الآثار ، ودلت عليه السجلات الرسمية ، واوضحته واقرته العلوم الطبيعية التجريبية ، ويعرف بالتاريخ الصحيح .

والثاني : ويتناول التاريخ المروي، او التاريخ الاسطوري . وهو ما لم يتوافر فيه ما توافر فى التاريخ الصحيح من ادلة وبراهين . على ان هذا النوع

---

(7) التحرر الانساني : ترجمة حرفية كذلك لكلمة (Humanism) التى يستعيرونها هي الاخرى الى العربية حين يقولون : (هيومانزم).

من التاريخ لا يكون محلا للطعن او الرفض الا اذا جاءت البراهين الاثرية ، والنتائج العلمية الطبيعية بعدم صحته ، والا بقي الحكم له او عليه للمستقبل ، وما عسى ان تاتي به البحوث اللغوية الاثرية ، او تجارب العلوم الطبيعية مما يؤيده او ينفيه .

* * *

ومن فوائد علم اللغات ايضا ، دراسة العقليات القديمة، وتطور الفكر الانساني ، ومدنيات الاجناس البشرية ، وروابط الامم والشعوب ، ومكانتها في المجهود العقلي الانساني والانتاج الاجتماعي المدني.

وقد انتج (علم اللغات) علوما كثيرة ، لها اهميتها الكبيرة في حياة الانسان وكذلك في ثقافته العامة ، منها :

(علم مقارنة اللغات) مقارنة لفظية ومعنوية ، و (تاريخ ادب اللغة) ، بعد ان كان ادبا فقط ، و (تاريخ آداب اللغات المقارن) ، و (علم فقه اللغة) ، و (النقد الفني) ، و (النقد الادبي الكامل) . وكان هذا العلم الاخير موجودا من قبل ، ولكن على مستوى لا يجاوز حد البساطة في اذواق الادباء والمتاخرين والمتادبين من (8) اسلافنا القدماء.

وخلاصة القول ، فان (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات) ، لم يجاوز كونه وليد القرن التاسع عشر ، وان ما تقدم هذا العهد من الاشتغال بقواعد اللغتين الاغريقية واللاتينية ، وما تقدمه من الابحاث المستفيضة في ضوابط اللغتين العربية والعبرية . ان ذلك كله لم يصل الى توسيع دائرة البحث اللغوي الذي يمكن ان تسمى نتائجه (علم اللغات) . وان الفكرة المتطرفة القائلة بان (اللغة العبرية) هي اللغة الانسانية الاولى، كانت مثبطة للهمم في البحث اللغوي الحر .

على ان التقارب بين اللغتين : العبرية والعربية، دفع المستشرقين اليهود ـ منذ القرن العاشر الميلادي ـ الى البحث والمقارنة بينهما من جهة ، وبين (العبرية) و (الآرامية) من جهة اخرى . وفي القرن السابع عشر ادرك المستشرقون مدى القرابة بين اللغتين : (الحبشية) و (العربية)، فدفعهم ذلك الى البحث عن هذا التشابه ، بين (العربية) واللغات السامية الاخرى، فوصلوا من ذلك الى معرفة المجموعة السامية .

وفي القرن التاسع عشر ، وصل الباحثون بفضل (علم اللغات)، الى الكشف عن العلاقة بين السنسكريتية (الهندية القديمة المقدسة) وبين الفهلوية (الفارسية القديمة) من جهة ، وقرابتهما الى اللغات الاوروبية من جهة اخرى ، فوصلوا من ذلك الى تكوين مجموعة (اللغات الآرية) ، او (الهندوجرمانية). وذلك الى جانب المجموعة المتقدمة، التي عرفت بمجموعة (اللغات السامية) . ومن هناك انطلقوا الى دراسة اللغات الاخرى في مختلف انحاء هذا الكون الفسيح، فوصلوا من ذلك الى سلسلة طويلة يضيق عنها الحصر .

المراجع :

1 ـ كتاب الاساس في الامم السامية وشعوبها ولغاتها ، للدكتور علي العناني ورفيقه ، ط 1 الجزء الاول . القاهرة ـ مطبعة بولاق 1925، ومن مواطن مختلفة فيه .
2 ـ كتاب تاريخ اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنسون ، وفيه بحث عن اللغات السامية جميعها وشواهد وشروح ، وقد اعتمدت الكثير منها . ط 1 (القاهرة) 1929 .
3 ـ كتاب بروتو كولات حكماء صهيون ، من الاجزاء الاربعة . وخاصة ما تناول العبرية وما جاورها من لهجات كنعانية ، تاليف عجاج نويهض . ط 1 . بيروت 1967 .

(8) فقه اللغة : كان هذا العلم معروفا ايام حضارة العرب ، ولكن في مدلول محدود لا يجاوز حقيقة الفاظ اللغات وكلماتها . وفيه الف الثعالبي كتابه: (فقه اللغة). وهو اليوم علم واسع ، يتناول فيما يتناوله في اللغات الحديثة ، العلم الذي يطلقون عليه : (Etymologie)